أنا ونفسي

أعنتُ نفسيَ حتى مضَّها السأمُ ... وكدَّها عُسُرٌ في الجد ينصرمُ
قالت تُغادرني يا ويحَ قلبك من ... قلب بنَى ما بناهُ وهو ينهدمُ
أذاب أكثرهُ إبداعُ أيسرهِ ... كالدنِّ من قامِ فيهِ انبرى القلمُ
مقيَّدٌ في وثاقٍ من خلائقهِ ... فما لهُ لذةٌ إلاَّ لها ألمُ
يناشد المثلَ الاعلى وفيهِ الى الـ ... ـأدنى مجاذبةٌ ما دام فيهِ دمُ
يا مُغنيَ العمرِ في التفتيش عن حُلُم ... لو كان يدركهُ ما كان اسمهُ الحُلُمُ
ما لذةُ العيش إنَّا كنت منقسماً ... ففيك قاضٍ وسجَّانٌ ومتَّهمُ
دأبًا تظلُّ سجيناً لا انطلاق لهُ ... ما دام للعقل قاضٍ فيك يحتكمُ
ان الصبيَّ صبيٌّ في طبائعه ... فالنعيُ والأُسُ في اخلاقهِ هرمُ
والقيدُ قيدٌ وإن قالوا اسمهُ خُلُقٌ ... والهمُّ همٌّ وان قالوا اسمهُ هممُ
كم لفظةٍ في لغات الناس مجرمةٍ ... لو حاكموها أماتوها وما رحموا
ففي القبور لفاكي الدما رممٌ ... وللشهامة في أجداثها رممُ
موتى كموتى نلا زادوا ولا نقصوا ... وان تكن قتلت إحداهما القدمُ
واثنان لصَّانِ في الأموال قد رتعا ... اللصُّ تعرفهُ والآخر .... الكرمُ

***

فقلت للنفس تأساءً وتعزيةً ... إن الصواعق مما تجلبُ الديمُ
يا نفسُ ويحك ما في السهل من قممٍ ... وانما شمخت في طَوْدها القممُ
من كان في نفسهِ أرضاً موطَّأةً ... تطأهُ من كل شيءٍ حولهُ قدمُ
ومن تكن نفسهُ بحراً ترجرجهُ ... أمواجهُ لم يزل يَدْوي ويلتطمُ
ومن يكن طابعَ البركان منفجراً ... فوَّارهُ طاش منهُ الجمرُ والحممُ
الخُلْقُ ما الخُلْقُ الاَّ ما يتوِّعهُ ... في الناس من دهرهم ما شاءت الحِكَمُ
منهم زجاجٌ ومنهم جَنْدَلٌ هِبِرٌ ... خاطمٌ في تلافيهم ومختطمُ
حالٌ تلائم حالاً في مناسبة ... والضدُّ ليس بغير الضد يلتئمُ
إن لم يكن عندهم لوحُ الوجود فما ... عساك تحسبهم في اللوح قد رسموا

في الرواية أحداثٌ يجيءُ بها ... مشاورها على ما صوَّر القلمُ
وكل لفظ لمعناهُ فإن تكُ لا ... تجري المعاني فلن تجري بها الكلمُ
يا حيرةَ العقل هل للظلمة ابتقتْ ... أنوارها أم على انوارها الظلمُ
والخيرُ والشرُّ أيٌّ أشبهما هو من ... خبرٍ وأيهما الشرُّ الذي زعموا
هل الأُولى حرموا الأَّ بمن رُزقوا ... أم الأُولى رُزقوا الأَّ بمن حُرموا
يجني على الشاة نابُ الذئب ويحك أم ... تجني على الذئب من لُحمانها الغنمُ ؟

***

لم يُخلق الناسُ الأ خَلْق مُشكلة ... بما به اقترفوا تلقاهمُ انتظموا
لكانت الارضُ لا همٌّ ولا تعبٌ ... لو أصبح العمر لا موتٌ ولا سقمٌ
عما وُلدتَ رضيعاً وانشأت فتى ... وعشتَ من بعدُ كهلاً جاءك الهرمُ
فما الذي أنت راضيهِ فحامدهُ ... الأ الذي أنت شاكيهِ فتهمُ
همُّ الحياة كمثل الجمرة اضطرمت ... فما الرمادُ سوى ما كان يضطرمُ

***

يا نفس ويحك أرضى الخلدَ منك فتًى ... ماضي العزيمة وثَّابٌ فقتحمُ
لا تعرضي ليَ لذات الهوى أبداً ... ما للهوى في لساني «لا» ولا «نعمُ»
كأسُ المدامة في بعض الخطاب فمُ ... ومدفعُ الحرب في بعض الكلام فَمُ
ما لذتي أنا الأَّ ان أكون فتى ... كما يُرفُّ في اعلى الذُّرى علَمُ
كأنهُ صفحة منشورة قرأت ... فيها صغارَها العُلوِيَّةَ الأُمَمُ
سِلمٌ وحربٌ لهُ في سلمها عِظمٌ ... يختصونهُ ولهُ في حربها عِظَمُ

***

أنا المقيَّدُ في نفسي وفي خُلُقي ... كأنني عبدُ حُرٍّ قيدُهُ القَسَمُ
لا كالخليع يرى الاخلاق تمنعهُ ... جُرْماً عليك فيلقيها ويجترمُ
شتَّان بين امرىءٍ في نفسهِ حرَمٌ ... قُدْسٌ وبين امرئٍ في نفسهِ صنمُ
لا تحسبوا كلَّ قيدٍ قيدَ حاملهِ ... بل قيدت نِقَمٌ فيهِ او النِّعمُ
كيف السباقُ غداةَ السبق إن جُمعت ... لهُ الجيادُ ولم تُوضَعْ لها لُجُمُ
والعودُ اوتارهُ إن لم تُشدَّ بهِ ... شدَّ المقيدِ لم يَصدَح لها نَغَمُ

مصطفى صادق الرافعي